جميـل العارف بالصحافة

«١»

إذا كان علينـا أن ننظـر إلى الحـاضر بغضـب، فعلينـا أيضًـا أن ننظـر إلى نفـس الحـاضر بخجـل!

إن بارونـات الصحافـة هـذه الأيـام لا يختلفـون كثـيرًا عـن باشـوات الصحافـة أيـام زمـان، أي قبـل ثـورة ٢٣ يوليـو، إنهـم الباشـوات الذيـن يتحكمـون ويتاجـرون في أرزاق الصحفيـين الذيـن كانـوا يعملـون معهـم في الصحافـة، وذلـك بعدمـا أصبحـت الصحافـة المصريـة جاريـة في حرملـك الطغيـان في بلـد لم يعـد فيـه مـن سـلطة سـوى سـلطة الديكتاتـور الواحـد، وطغمـة مـن محـترفي التآمـر والتسـلط وحلفائهـم الإخـوان وبقيـة دكاكـين الإرهـاب المعاديـة للديموقراطيـة ولنضـال الشـعب.

«في بلـد فَقَـدَ نخبتـه، ويُسـتعمل فيـه الجهـل والأمـن والديـن كأدوات سياسـية لتدمـير المؤسسـات الشـعبية وسـقوط الدولـة، كان مـن الطبيعـي أن تحتـل ثقافـة الرعـاع أغلـب الصحـف، وسـاعات الإرسـال المرئيـة والمسـموعة، وأن يتـم تقسـيم الصحفيـين إلى تابعـين ومعاديـن، ويتحـول شرف المهنـة إلى شرف شـخصي وكبريـاء ومعانـاة لـدى بعـض الصحفيـين، في حـين ينقلـب لـدى البعـض الآخـر إلى دسـتور للنفـاق والفسـاد، وتكـرّس الصفحـات لنجـوم الاحـتراف الدينـي ورعـاة التديـن السـطحي، وللأسـئلة الفاسـدة والأجوبـة الأكـثر فسـادًا، وتصبـح السـطور أداة للفتنـة الوطنيـة وتغطيـة

جاهـزة وتبريـرا يوميـا لتبديـد الوطـن، ويسـقط الفاصـل بـين الأمـن والصحافــة».

هكـذا قـال العـارف بالصحافـة جميـل عـارف في مقدمـة كتابـه الأجمـل «أنـا وبارونـات الصحافـة» الـذي جمـع فيـه خلاصـة خبراتـه وتجاربـه وحكايـات وأسرار المهنـة، ورواهـا بأسـلوب جـاذب وشـيق وممتـع ولاذع وحـكى أسرارا كثـيرة لم تكـن لـتُروى لـولاه، ومنهـا أن نقابـة الصحفيـين كان مقرهـا الرسـمي الأول داخـل شـقة كانـت ناديًـا للقـمار!

وكانـت هـذه الشـقة تشـغل الـدور الأرضي مـن مبنـى قديـم يتكـون مـن دوريـن في المـكان الـذي بنيـت فيـه عـمارة «وهبـي» وهـي المواجهـة للبنـك المركـزي عنـد تقاطـع شـارعي شريـف وقـصر النيـل، وكانـت عبـارة عـن غرفـة واحـدة وثـلاث صـالات كبـيرة.

وكان بوليـس الآداب قـد داهـم الشـقة لكونهـا وكـرًا للعـب القـمار، وقـام بضبـط بعـض الجرائـم المخالفـة للقانـون فيهـا، وأراد فـؤاد سراج الديـن -وكان وزيـرا للداخليـة والشـؤون الاجتماعيـة في حكومـة «الوفـد» التـي جـاءت إلى الحكـم بعـد حـادث ٤ فبرايـر سـنة ١٩٤٢- مجاملـة الصحفيـين فأمـر بمصـادرة الشـقة، وتسـليمها لهـم في مقـر نقابتهـم!

«٢»

جميـل عارف كان دائمًا يتخذ خط النار سـكنًا.

فقـد حـضر الحـرب العالميـة الثانيـة، وكان أول صحفـي يـزور اليمـن في ١٩٤٧ أيـام الإمـام يحيـى بـن حميـد الديـن ملـك اليمـن. وبعدهـا بعـام واحـد فقـط عمـل مراسـلا حربيـا في أثنـاء حـرب

فلسطين عام ١٩٤٨. وحين وقع العدوان الثلاثي على بورسعيد في عام ١٩٥٦ كان حاضرا بجوار الفدائيين يرصد ما يجري على خط النار، وشهد ثورة لبنان في ١٩٥٨، وكان شاهدا على الانقلابات العسكرية في سوريا، وتابع من داخل المدن العراقية ثورات العراق، ورصد ثورة السودان بتفاصيلها، وعاش مع أبطال جيش التحرير الجزائري داخل الأراضي الجزائرية إثر اندلاع الثورة في بلد المليون شهيد.

لم يذهب إلى دولة إلا إذا قامت فيها حرب أو ثورة، لذا عاصر أغلب حركات التحرر في الوطن العربي وإفريقيا، وقام بجولات صحفية في ١٠٩ دول في مختلف أنحاء العالم على مدار ٥٠ عامًا، واشتهر بتحقيقاته الصحفية التي كتبها عن الدول الإفريقية بعد أن حصلت على استقلالها.

وعاصر أحداث الجامعة العربية منذ إنشائها، وعمل لمدة ١٥ عامًا محررا للشؤون العربية، وكان موضع ثقة عبد الرحمن عزام باشا أول أمين عام للجامعة، لذا قام بنشر مذكراته السرية التي قرأها الرئيس السادات وتأثر بها في أثناء كتابة مذكراته!

وكان ترتيبه في عام ١٩٧٠ رقم ٥٢ في أقدمية الصحفيين بجدول نقابة الصحفيين المصرية، لكنه رغم تاريخه المهني الطويل لم يجلس على مكتبه ينتظر الخبر بل كان يذهب إليه حيثما كان منذ أن التحق بالعمل الصحفي في عام ١٩٤٥ فور تخرجه في جامعة القاهرة وعمله في مجلة «المصور» التابعة لـ«دار الهلال»، لكنه انتقل منها ليعمل في مجلة «آخر ساعة» مع زميل دراسته الكاتب الكبير أحمد بهاء الدين الذي كان زميلا له في نفس الفصل لمدة خمس سنوات كاملة، في مدرسة «السعيدية الثانوية»، وشاء القدر أن يلتقيا في «آخر ساعة» حين

صار بهاء رئيسًا لتحريرها، وعمل هو نائبًا له، وظل في موقعه لمدة ١٩ عامًا، ولم يتركه إلا عندما ذهب ليعمل مديرًا لتحرير مجلة «أكتوبر»، وحين خرج على المعاش صار كاتبا متفرغًا في مؤسسة «روزاليوسف».

«٣»

لم يَنَلْ عارف الشهرة التي يستحقها، وتتناسب مع حجم عطائه، لكنّ فارقًا هائلا بين أن تكون صحفيًّا كبيرًا، وأن تكون صحفيًّا مشهورًا، فالشهرة ليست المعيار الأول لقيمة الصحفي وقامته، فبعض مشاهير الصحافة ليسوا كبارًا في المهنة، وبعضهم أقرب إلى مندوب العلاقات العامة الذي يعرف الجميع ويعرفه الجميع فقط لأنه يظهر في كل القنوات في مختلف الأوقات، وآراؤه ترضَى عنها السلطة، وتُرضي القارئ والمشاهد والمُعلِن!

بعضهم يتم التعامل معه وتقديمه باعتباره مفكرًا كبيرًا رغم أنه بلا أي إنتاج فكري، وبعضهم يتم التعامل معه باعتباره خبيرًا ومحللا استراتيجيًّا رغم أنه لم يثبت أنه نجح في تحليل أي ظاهرة أو تقديم أي دراسة حقيقية، وبعضهم إنتاجه الأدبي ضعيف، ولكن يتم تصديره باعتباره أديبًا كبيرًا.

لكن بالطبع هناك مشاهير يملكون قدرات خاصة، ومواهب عظيمة، وأفكارًا نبيلة، وحضورًا طاغيًا، لكن الأكثر شهرة ليس من الضروري أن يكون الأكثر كفاءة، ومهارة، وموهبة.

جميل عارف كان من هؤلاء الذين لم ينالوا حظهم من الشهرة لكن لا يجوز أن لا تعرفه، ولا يجوز أن لا تعرفه أجيالٌ من الصحفيين الشباب الذين لم يقرأ بعضهم -للأسف- تاريخ المهنة،

ولم يعرف الرعيل الأول من الآباء المؤسسين لها، والمدافعين عنها الذين دفعوا في المهنة أعمارهم، دون أن يحصدوا أي مكاسب، رغم أنه كان صديقًا لعمالقة الفكر والأدب والصحافة، وكان صديقا للأستاذ هيكل منذ أن تعرف عليه في أواخر الأربعينيات. ويصف هيكل علاقته بعارف قائلا: «جميل عارف رفيق أيام خوالٍ تعود إلى أواخر الأربعينيات، حينما كنا وسط السحابات الوردية للصبا جيلا جديدًا خطفت أحلامه مهنة البحث عن المتاعب فأعطاها نفسه، وقبلت بدورها عطاءه، وأخذت عمره كاملا».

صداقة هيكل وعارف جعلت هيكل يُقدم لكتابه «أنا وبارونات الصحافة» رغم أنه كان يحمل نقدًا لاذعًا، وحادًّا لعدد كبير من الصحفيين والساسة، لذا حين سأل عارف هيكل عن رأيه في الكتاب قال الأستاذ: «لا أنا مختلف مع الكتاب ولا أنا متفق معه»!

ثمن المبادئ!

«١»

كان يدفـع ثمــن مبادئــه راضيًــا مطمئنًّــا، لــذا كان ضيفًــا دائمًــا عـلى سـجون الأنظمـة الحاكمـة سـواء مـن أيَّدهـا أو عارضهـا أو مـن تجاهلهـا!

المـرة الأولى التـي دخـل السـجن فيهـا كانـت في عـصر الملـك فـاروق، حيـث كان يعـارض الإقطـاع ويهاجـم النخبـة الفاسـدة والحاكمـة، لكنـه لم يكتـفِ بذلـك بـل كـوَّن خليـة ضـد الاحتـلال البريطـاني وقـرر مـع أصدقائـه تصفيـة ثلاثـة مـن أشرس الموظفـين البريطانيـين وأشـدهم دمويـة، وأرسـلوا إلى الثلاثـة حيثيـات وأسـباب الحكـم المباشر بتصفيتهـم! ومنحوهـم مهلـة أسـبوعين لـكي يسـتقيلوا مـن مناصبهـم أو يرحلـوا عـن مـصر بعـد الجرائـم التـي ارتكبوهـا في حـق الشـعب، لكنهـم سـخروا مـن الخطابـات التـي وصلتهـم، وظلـوا في طغيانهـم يعمهـون، وفي نهايـة الأسـبوعين بالضبـط تمـت تصفيـة ثلاثتهـم مـما أحـدث فزعًـا مدويًـا في الإدارة البريطانيـة التـي اسـتماتت في البحـث عـن الشـباب الوطنـي الـذي قـام باغتيالهـم، والمدهـش أن الدكتـور مصطفـى مشرفـة كان عضـوا مؤسسًـا في هـذه الخليـة!

أمـا المـرة الثانيـة التـي حـلَّ فيهـا عـودة ضيفًـا عـلى السـجون فكانـت في عـصر الرئيـس جـمال عبـد النـاصر رغـم كونـه واحـدًا مـن رمـوز الناصريـة ومؤرخيهـا والمنتصريـن لأفكارهـا، لكنـه ظـل عـلى

موقفـه كـما هـو، بـل ويـبرر مـا حـدث معـه قائـلا: «إن نصـف مَـن أعدمتْهـم الثـورة الفرنسـية كانـوا مـن زعـماء الثـورة»، ويضيـف: «خلافنـا مـع عبـد النـاصر لم يكـن تناقضًـا بـل كان خلافًـا حـول الأسـلوب، أمـا الأهـداف فكنـا عـلى اتفـاق تـام، وقـد كان عبـد النـاصر يدعـو كل الاتجاهـات السياسـية والوطنيـة لتسـهم في بنـاء وطـن جديـد يـراه عبـد النـاصر نموذجًـا لدولـة قوميـة ديموقراطيـة مسـتقلة، ونـراه نحـن كذلـك، لكـنّ أسـلوب التنفيـذ كان موضـع اختـلاف بيننـا».

أمـا المـرة الثالثـة فكانـت في عهـد الرئيـس السـادات عقـب اتفاقيـة كامـب ديفيـد التـي كان عـودة واحـدًا مـن أبـرز معارضيهـا، ولم يتـم الإفـراج عنـه إلا بعـد اغتيـال السـادات، لكـن عـودة ظـل عـلى موقفـه المعـارض لسياسـات السـادات. ويفـسر الفـارق بـين خلافـه مـع عبـد النـاصر وخلافـه مـع السـادات قائـلا: «إن خلافنـا مـع عبـد النـاصر كان خلافًـا في إطـار الهـدف الواحـد، بينـما خلافنـا مـع السـادات كان تناقضًـا رئيسـيًّا».

وحـين وصـل مبـارك إلى السـلطة كان عـودة قـد جـاوز السـتين، ولم يعـد اعتقالـه جائـزا، ربمـا هـذا هـو السـبب الوحيـد لعـدم دخـول السـجن في هـذه الفـترة!

«٢»

رغـم شـهرته بـ«غانـدي الصحافـة» فإنـه كان ابنًـا لأحـد كبـار التجـار، لكـن والـده أشـهر إفلاسـه إبـان احتـدام الأزمـة الاقتصاديـة العالميـة في الثلاثينيـات، وقـرر أن ينتقـل للعيـش في حـي الحسـين بالقاهـرة القديمـة.

والطريـف أنـه في أول صبـاح لـه في حـي الحسـين خـرج مـع والـده إلى محـل «الحلوجـي» لتنـاول طعـام الإفطـار مـن الفـول المدمـس، ففوجـئ أن صاحـب المحـل كان يُعِـدّ صبـاح كل يـوم طبقًـا مـن الفـول المدمـس منـزوع القـشر ويحملـه بنفسـه إلى سـعد زغلـول باشـا!

لم يكـن هنـاك أمـل أمـام الأب إلا أن يتفـوق ابنـه محمـد في دراسـته ليتعلـم بالمجـان، لـذا كان يقـول لـه: «يـا محمـد أنـت أملنـا الوحيـد في هـذه الدنيـا.. لم يعـد لنـا بعـد اللـه غـيرك يـا بنـي»، ولم يخيِّـب الابـن أمـل والـده، فنجـح وتفـوق في المرحلـة الابتدائيـة لدرجـة أنـه تـم اختيـاره لإلقـاء قصيـدة ترحيـب بزيـارة الملـك فـؤاد للمدرسـة، وسُرَّ جلالتـه سرورًا بالغًـا بالطفـل محمـد عـودة وأهـداه طاقـم أدوات مكتـب مـن الجلـد الفاخـر وعـاد بالطقـم فرحًـا إلى البيـت لكـن والـده لم يشـاركه الفرحـة، وكاد يطـرده مـن البيـت؛ إذ كان والـده وفديًّـا حتـى النخـاع!

وبعـد أن أنهـى دراسـته الابتدائيـة التحـق بالمدرسـة «السـعيدية الثانويـة»، لكنـه بـدأ يشـعر بالمهانـة التـي يعانيهـا أبنـاء الفقـراء، والسـبب أن أولاد الأثريـاء في «السـعيدية» كانـت تأتيهـم الساندوتشـات الجاهـزة بينـما أبنـاء الفقـراء يهبّـون مسرعـين إلى اليمكخانـة (قاعـة الطعـام) لنيـل الطعـام كالقطعـان -عـلى حـد وصفـه- لـذا أدمـن الهـروب مـن المدرسـة والذهـاب إلى حديقـة الحيـوان حتـى اسـتدعاه الناظـر وسـأله عـن سر غيابـه، وقلـة تحصيلـه الـدراسي فطلـب نقلـه إلى فصـل آخـر بعيـدًا عـن فصـل أولاد الـذوات.

وتخـرَّج محمـد في مدرسـة «السـعيدية» والتحـق بكليـة الحقـوق، لكنـه ثـار عـلى نظـام التعليـم في الكليـة، وشـعر أنـه يُغيِّـب العقـول،

فصار يتسلل إلى كلية الآداب للاستماع إلى محاضرات الدكتور طه حسين في الأدب والدكتور شفيق غبريال في التاريخ.

«٣»

شقَّ عودة طريقه إلى صاحبة الجلالة بالكتابة في مجلة كانت ذائعة الصيت اسمها «مسامرات الجيب» واستمر بها حتى صدر قرار بإغلاقها، فانتقل إلى صحيفة «الجمهور المصري» بصحبة مجموعة من الموهوبين المَهَرَة الذين نجحوا في إثارة المعارك السياسية والاجتماعية والثقافية آنذاك بأسلوب غير مسبوق، فيما تميزت الصحيفة عن غيرها بالأخبار الكاشفة لما وراء الستار من أسرار.

ثم انتقل للعمل مذيعًا ومترجمًا في الإذاعة الهندية التي كانت تبث برامجها بالعربية من قلب العاصمة بنيودلهي، وكانت هذه أولى رحلاته خارج مصر، ويقول عنها: «إذا ذهبت إلى الهند لا بد أن تعود، وإذا عدت مرة لا بد أن تعود وتظل تعود». لكنه اضطُرَّ إلى العودة إلى مصر بعد عامين من ثورة يوليو، وعمل صحفيًّا في صحيفة «الشعب»، ثم تركها إلى «دار الهلال»، لكنه لم يأنس بوجوده داخل هذه المؤسسة، فانطلق إلى «روزاليوسف»، وهناك التقى أحد أصدقائه الذي كان يعمل سكرتيرا لتحرير المجلة، فصافحه وطلب له كوبًا من الشاي ثم وضع أمامه رزمة من ورق «الدشت» وقال له: «اكتب لنا شيئًا يا أستاذ عودة تود أن تراه على صفحات (روزاليوسف)»، وكتب، وعمل، فصار واحدا من نجوم «روزاليوسف»، وأحد أعمدتها.

لكـن المدهـش أنـه مـن فـرط حبـه للصحافـة أصيـب بـ«الملاريـا» مرتـين لكـثرة ذهابـه إلى أماكـن الأوبئـة، فلـم يركـن إلى الجلـوس خلـف المكاتـب، ولم يكـن يهـوى رحـلات الاسـتجمام بـل كان مغامـرًا، ولم يكـن فقـط محبًّـا للبسـطاء بـل كان واحـدا منهـم أيًّـا كان موطنهـم، وكتـب مئـات المقـالات عنهـم، لكنـه لم يكتـب كتبًـا كثـيرة فاكتفـى ببضعـة كتـب لكنهـا عـلى قلـة عددهـا بالغـة الأهميـة ومـن بينهـا: «رحلـة في قلـب نهـرو»، و«الصـين الشـعبية» الـذي كان أول كتـاب باللغـة العربيـة يُكتـب عـن الصـين، وكان ذلـك عـام ١٩٥٢، وقـد رفضتـه الرقابـة في بـادئ الأمـر إلى أن وقـع المخطـوط الأصـلي مـن الكتـاب بـين يـدي عبـد النـاصر، ففوجـئ بالرقابـة تتصـل بـه لتخبرونـه بموافقـة عبـد النـاصر عـلى نـشره كامـلًا!

كان الكاتـب الكبـير محمـد عـودة نموذجًـا فريـدًا ودليـلا دامغًـا عـلى أنـه لا يـزال هنـاك متصوفـون حقيقيـون يعيشـون بيننـا، فرغـم شـهرته الواسـعة لم يغـادر شـقته التـي اتخذهـا سـكنا منـذ سـنوات بعيـدة رغـم أن المصعـد لم يكـن يعمـل بالعقـار إلا نـادرًا، ويضطـر عـودة إلى أن يصعـد عـلى قدميـه إلى الـدور الثامـن حيـث شـقته رغـم أنـه كان قـد بلـغ مـن الكـبر عتيًّـا، لكنـه لم يجمـع مـن المـال مـا يجعلـه يجـد سـكنًا آخـر، بـل لم يمتلـك سـيارة خاصـة حتـى رحيلـه.

شـعراء يَتَّبِعُهم الثائرون

ولنـا الدنيا هنا.. والآخرة

محمـود درويـش

الجبل المتحرك بالحب والسخرية!

«١»

لو أن أحدًا تبرَّع، وتفرغ، وقرر أن يكتب حوارات كامل الشناوي في جلساته الخاصة لصار لدينا تراث هائل من الفكر والفن والسخرية، لكن لسوء حظنا أن تراث كامل الشناوي أغلبه شفاهي، فلم يهتم بتدوين ما يقوله، ولم يحاول أي باحث التنقيب عما جرى في هذه الجلسات التي كانت بمثابة تاريخ موازٍ للتاريخ الرسمي، لكنه تاريخ حقيقي وتأريخي مهم ومختلف ممن حضر، وشهد، وشاهد، ورصد، وفهم، وقرأ، ورأى، وسمع، وعلم، وفسَّر، ثم سخر من كل الحكام!

فقد امتلك عمنا كامل الشناوي موهبة أثقل من الهرم الأكبر، وإحساسا أعلى من برج الجزيرة، ومعاني أعمق من البحر الأحمر، وعذوبة أعذب من ماء النهر، وخفة ظل يستظل بها الجميع.

إنه الجبل المتحرك بالحب والسخرية، فكان إذا أحب، أحب بلا قيد ولا شرط، وإذا كره، كره بلا قيد ولا شرط -على حد تعبير عمنا محمود السعدني- ومن أبرز صفاته أنه يستطيع أن يشم رائحة موهبة على بعد ألف ميل، وهو لا يشمها فقط ولكنه يسعى إليها، ويجذبها نحوه، ويجاهد في سبيل أن يدفع بها خطوات إلى الأمام.

كان يقطر فنًّا، وأدبًا، وسخرية، وثقافةً، وفكرًا، وشعرًا،

وإنسـانيةً، وكل مَـن حـضر جلسـاته يحلـف بهـا، ولا ينـسى مـا دار فيهـا، فقـد نحـت ألفاظًـا جديـدة، ومعـاني مختلفـة، وأفـكارًا مبتكـرة، وعـبَّر عـن مشـاعر لم يسـتطع التعبـير عنهـا غـيرُه، فكلماتـه عـلى الـورق كان لهـا صـوت وصـدى.

هكـذا ظـل الشـناوي منـذ عمـل في جريـدة «كوكـب الـشرق» عـام ١٩٣٠ وبعدهـا بخمـس سـنوات اختـاره الدكتـور طـه حسـين ليعمـل معـه في جريـدة «الـوادي»، وفي الوقـت نفسـه عمـل في مجـلات «آخـر سـاعة» و«الإثنـين» و«المصـور» وحصـل عـلى لقـب «بـك» مـن الملـك فـاروق، وبعـد الثـورة صـار رئيسًـا لتحريـر «الأخبـار»، ورغـم حدتـه فـإن خفـة ظلـه كان تجـبّ كل شيء، وفي ذات الوقـت لم يكـن موقفـه السـياسي مائعًـا بـل كان واضحًـا، لكنـه أيضًـا لم يكـن منتميًـا إلى حـزب أو جماعـة، فهـو حـزب مسـتقلّ، وجماعـة ضخمـة!

لذلـك يقـول عنـه أنيـس منصـور: «الشـناوي اختـار أن يكـون عاشـقًا للسياسـة، وعاشـقًا للقضايـا الإنسـانية، ولم يكـن لـه لـون سـياسي، وإنمـا هـو صديـق الساسـة، لهـذا كان الثنـاء ينهـال عليـه مـن جميـع الاتجاهـات، فالجميـع يتعامـل معـه كقيمـة عظيمـة فـوق كل الاتجاهـات والميـول والأحـزاب، والـسر أنـه معجـون بالمصريـة المتسـمة بالتسـامح والمكـر وسـعة الصـدر».

«٢»

كان ميـلاده عقـب وفـاة الزعيـم الوطنـي مصطفـى كامـل، فسـمَّاه والـده مصطفـى كامـل تيمُّنًـا بالزعيـم الوطنـي، وألحقـه بالأزهـر، لكنـه لم يرتـدِ العمامـة والجِبَّـة والقفطـان سـوى خمـس سـنوات فقـط بعدهـا هـرب مـن حـي «الحسـين»، وذهـب إلى

شـارع «عـماد الديـن» حيـث المسـارح والسـينما، ووجـد ضالتـه في القـراءة، ومجالـس الأدبـاء، فـدرس الآداب العربيـة والأجنبيـة، وصـار مـن الهاويـن والغاويـن للشـعر، وأعلامـه، فغنَّـى مـن كلماتـه كبـارُ مطـربي عـصره، مـن أم كلثـوم إلى عبـد الوهـاب، مـن فريـد الأطـرش إلى عبـد الحليـم حافـظ، ومـن نجـاة إلى شـادية لذلـك أحـزن حـين أجـد أنـه لا أحـد يعـرف عـن كامـل الشـناوي سـوى أنـه مؤلـف أغنيـة «لا تكـذبي»، كأنـه لم يكتـب غيرهـا، وقطعًـا أسـهمت في ترويـج هـذا الشـعور الأسـطورة التـي تكمـن وراءهـا!

كان البعـض يفكـر كثـيرًا قبـل المـرور أمـام مكتـب كامـل الشـناوي حتـى لا يلمحـه، ويُطلـق عليـه نكاتـه، فيصـير مثـارًا للسـخرية، ومضربًـا للأمثـال بـين النـاس.

فقـد كان عمنـا كامـل الشـناوي مـن ألمـع ظرفـاء عـصره، وكانـت سـخريته تطـال الجميـع، مـن الرئيـس إلى الخفـير، ومقالبـه كانـت لا تـترك أحـدًا، فلـم يسـلَم منهـا حتـى شـقيقه المعتـز باللـه الشـناوي الـذي حـين تخـرج محاميًـا أعـدت لـه الأسرة لافتـة ضخمـة كُتـب فوقهـا «المحامـي أمـام المحاكـم الشرعيـة» فتسـلل كامـل ليـلا ليزيـل كلمـة «أمـام» ويكتـب بـدلا منهـا «وراء» وظلـت اللافتـة أيامًـا قبـل أن ينتبـه المعتـز لمـا جـرى فيهـا، فذهـب يشـكو كامـل أخـاه إلى والـده الصـارم والقـاضي الشرعـي، لكنـه نجـا مـن العقـاب عندمـا فـسر تصرفـه بـأن محـل إقامتهـم كان بالفعـل خلـف المحكمـة الشرعيـة وليـس أمامهـا!

وبعدمـا اسـتقر الأب في القاهـرة نائبًـا لرئيـس المحكمـة الشرعيـة العليـا، واختـار لأسرتـه مسـكنًا مـن طابقـين في منطقـة الأعيـان بالسـيدة زينـب في جنينـة ياميـش، مخصِّصًـا غرفـة في الطابـق الأسـفل لابنـه الأكـبر كامـل للتفـرغ للدراسـة الثانويـة بالأزهـر، وكان للحجـرة

باب يفضي إلى الشارع تأتي منه شلة الأنس ومن بينهم محمود المليجي وزكي طليمات وفتحي رضوان وغيرهم من نجوم الفن والسياسة، وفي أحد الأيام دخل والده الغرفة فوجده يلعب الورق مع أصدقائه، وجُنَّ جنون القاضي الشرعي، وصرخ بأعلى صوته: «بتلعبوا قمار.. وفي بيتي؟!!» وارتجّ كامل للمفاجأة لكنه سارع، قائلا: «أبدا يا بابا.. إحنا بنلعب بوكر»!

فخفت صوت الأب، وقال: «أوعى يا ابني يكون قمار».. فقال كامل: «والله العظيم بوكر يا بابا»!!

«٣»

سأل المرحوم تقلا، مؤسس جريدة «الأهرام»، العم كامل الشناوي عما إذا كان له أصدقاء من الوزراء، فأجابه كامل الشناوي بعفوية: «إنني أسهر كل ليلة مع محمد محمود باشا»!

فخبط تقلا باشا كفًّا بكفّ، فأمامه صحفي يصادق رئيس الوزراء، ثم يكتب في جريدته شعرًا!

فصرخ تقلا في كامل وشرح له أن هذا هو أهم مصدر صحفي في مصر، ويجب أن يكون ذكيا وقادرا على التقاط الأخبار التي تُقال أمامه، وبالفعل ذهب كامل وحصل على خبطة صحفية كبرى لـ«الأهرام»، وأدرك محمد محمود باشا أن مَن سرَّب الخبر هو كامل الشناوي فقرر أن يلقنه درسًا لم ينسه! فذات مساء وفي أثناء جلوس كامل بصحبة رئيس الوزراء سمعه يقول: «إن جوبلز وزير الدعاية في حكومة هتلر قد وصل إلى مصر سرًّا، ونزل في فندق سميراميس»، فطار كامل ليبلغ تقلا بما جرى، لكن مؤسس «الأهرام» تشكك في المعلومة، فبحث وتقصَّى وتحرَّى

حتـى أدرك أنـه فـخ نصبـه رئيـس الـوزراء ليصطـاد كامـل الشـناوي!

ربمـا هــذه المـرة الوحيـدة التــي صـار فيهـا الشـناوي صيـدًا، فهـو دائمًـا يلعـب دور الصيـاد، أينـما ذهـب أو حـل، لكنـه حـين حلـل نفسـه بالأرقـام مـن واحـد لعـشرة أعطـى نفسـه في الشـجاعة ٦، والصــدق ٨، والحــب ١٠، والغــيرة ٧، والغضــب ٢، والأناقــة ١، والشــكل صفــر!

وحـين سـألته الإعلاميـة آمـال فهمـي: مـا الـشيء الوحيـد الـذي جاملـك فيـه الزمـن؟ فأجـاب: «سـواد شـعري»!

وقبـل رحيله في ٣٠ نوفمبر ١٩٦٥ رثى نفسـه قائلا:

إذن حان حينـي وانتهى العمر
إنه عزيز عـلى نفسي فراق حياتيا
أمثـوايَ في لَحْدٍ من الأرض ضيق
وما كنتُ بالدنيـا العريضة راضيًا؟

الاستثنائي!

«١»

«مـا دام فينـا رجـل لـه كل هـذه اللماحيـة والـذكاء والوعـي والعبـث والمـرح والقـدرة عـلى التلخيـص والتواصـل، ومـا دام قـادرًا عـلى إبـداع رسـوم كهـذه، فـلا بـد أن الحيـاة مـا زال فيهـا مـا يسـتحق أن نعيشـه»!

هكـذا كان عمنـا صـلاح جاهـين، مثلـما وصفـه عمنـا محيـي الديـن اللبـاد.

جاهـين كان رقـمًا قياسـيًّا في كل شيء، في الكاريكاتـير، والشِّـعر، والسـيناريو، والمقـال، والكتابـة السـاخرة، وصناعـة الأفـلام عـلاوة عـلى قدرتـه الخارقـة عـلى اكتشـاف أصحـاب المواهـب أو تلميعهـم وتغيـير مسـارهم، وجعلهـم يتصـدرون المشـهد.

رغـم قـدرات جاهـين الاسـتثنائية في صناعـة الابتسـامة عـلى وجـوه النـاس فإنـه أيضًـا كان بمثابـة الملهِـم؛ فقـد كان الشـاعر الكبـير أمـل دنقـل في رحلـة مرضـه لا يتنـاول الـدواء إلا وهـو يسـمع «رباعيـات» صـلاح جاهـين.

جاهـين تـرك بصمـة بـارزة في كل مَـن عرفـه، وكان بمثابـة أكاديميـة فنـون تسـير عـلى قدمـين، فقـد تبنَّـى عـددًا هائـلا مـن المواهـب، لعـل أشـهرها سـعاد حسـني ونيـلي وأحمـد زكي، لكـن إنسـانية جاهـين غلبـت فنَّـه، فـذات يـوم حـدث خـلاف بـين أحمـد زكي وزوجتـه، ترتَّـب عليـه أن تركـت الزوجـة البيـت، ولم تفلـح

محـاولات الصلـح بينهـما، وفي ذات التوقيـت كان جاهـين قـد خـرج لتـوِّه مـن عمليـة جراحيـة في القلـب، لكنـه بمجـرد أن خـرج مـن المستشـفى اتصـل بأحمـد زكي، وقـال لـه: «لـو فـاضي تعـالى عشـان عايـز أروح إسـكندرية»، وبالفعـل اتجهـا إلى الإسـكندرية وبمجـرد أن وصـلا أخـرج جاهـين ورقـة مـن جيبـه فيهـا عنـوان، وظـل يسـأل عنـه حتـى وصـلا إلى العنـوان المطلـوب، وبمجـرد أن طـرق جاهـين البـاب وجـد زكي نفسَـه يقـف أمـام حـماه، وأصلـح صـلاح بـين أحمـد زكي وزوجتـه، وأصر عـلى أن يعـود إلى القاهـرة وحـده في نفـس اليـوم.

«٢»

انطلـق في طريـق النجـاح كالشـهاب، لم يكـن مـن المنافقـين ولا أهـل الثقـة، لكـن شِـعْره الشـعبي بـشَّر بالثـورة قبـل أن توجـد، وزكَّاه أنـه عُـرِف ببُعـده عـن الأحـزاب، وهـو مـن ناحيتـه وبتلقائيـة وإخـلاص، كـرَّس شِـعره للثـورة، فـما مـن إنجـاز أو نـصر أو موقـف نبـض بـه قلـب الثـورة إلا وأعطـاه المعـادل الشـعري في أجمـل صـوره، ثـم سرعـان مـا يترجَـم إلى غنـاء تـردده الإذاعـة والتليفزيـون... تلـك هـى الصـورة التـي رسـمها نجيـب محفـوظ برؤيتـه الثاقبـة في روايـة «قشـتمر» لعلاقـة صـلاح جاهـين أو «طاهـر عبيـد» بالثـورة ورجالهـا، تلـك الصـورة التـي التقطهـا محفـوظ لا تختلـف كثـيرًا عـن الواقـع لأن جاهـين أحـبَّ جـمال عبـد النـاصر قبـل أن يلتقيـا، بـل كانـت أشـعاره التـي كتبهـا دعـوة صريحـة للثـورة.

وحـين قامـت الثـورة كان الثـلاثي «عبـد الحليـم حافـظ وكـمال الطويـل وجاهـين» يلتقـون في بدايـة شـهر يونيـو مـن كل عـام

لتحضير أغنية جديدة، وظل الثلاثي على العهد حتى مرض والد جاهين بالسرطان، ولم يتحمل صلاح الخبر واختفى تمامًا وحاولت أسرته الوصول إليه دون جدوى لمدة عشرة أيام، بعدها أقسمت بهيجة «أخته» أن «حليم هو اللي مخبيه»، فذهبتْ إلى بيته وقالت له: «عاوزين صلاح ضروري، أبوه تعبان ومحتاج يشوفه وانت مخبيه عندك»، فقال حليم: «والله هوَّ ما عندي ولا حتى شفته.. ادخلي دوَّري عليه، وعمومًا أنا هاجيبه لحدّ عندك»، وبالفعل أحضره في اليوم التالي بعد أن نشر إعلانًا في «الأهرام» يقول فيه: «ارجع يا صلاح.. أهلك بيدوَّروا عليك».

عاد جاهين إلى بيته!

حين اعتلى الرئيس السادات كرسي الحكم في مصر، ظن أن جاهين سوف يناصره، إلا أنه فوجئ بأن «مافيش بينهم كيميا»، فقد كان صلاح لا يحب السادات بل كان يعانده بكتابة قصيدة جديدة في «الأهرام» كل عام في ذكرى وفاة عبد الناصر، مما أغضب السادات بشدة وجعله يرسل إليه واحدًا من رجال الحكم كان معروفًا بلباقته ليبلغه رسالة تقول: «الرئيس بيقولك انت مابتكتبش عنه ليه؟»، وكان رد جاهين: «والله أنا مش ترزي»!

«٣»

أنا من جيل «بوجي وطمطم» و«أبريق الشاي»، الجيل الذي تربَّى على أن رمضان لا يأتي دون أغاني صلاح جاهين، وحفظ «صباح الخير يا مولاتي»، وكان يردد «المصريين أهمَّه»، الجيل الذي كان -ولا يزال- يذهب لمشاهدة «الليلة الكبيرة»

ولا يعـرف أن صاحبهـا انتهـى مـن كتابتهـا عـام ١٩٥٧م، ليشـاهدها الأطفـال مـع افتتـاح التليفزيـون في يوليـو ١٩٦٠م، وأنهـا اشـتركت في مسـابقة أوروبـا الشرقيـة في نفـس العـام وحصـدت كل الجوائـز المخصصـة لأعـمال الأطفـال، لكـن أكـبر جائـزة حصـل عليهـا جاهـين ورفاقـه عـن «الليلـة الكبـيرة» هـى أنهـا ظلـت عـلى مـدار خمسـين عامًـا أكـثر عمـل درامـي غنـائي تعلقـت بـه قلـوب الأطفـال في تاريـخ مـسرح العرائـس، فكلنـا مـا زال يحفـظ في ذاكرتـه، رغـم أعبـاء الحيـاة، «الليلـة الكبـيرة يـا عمـى والعـالم كتـيرة»، بـل إن بعضنـا يحتفـظ بهـذا الأوبريـت الفـذّ عـلى الكمبيوتـر ليشـاهده مـع أبنائـه، ولكـن الغريـب في هـذا العمـل أن جاهـين نفسـه كان يـرى أن «الليلـة الكبـيرة» خرجـت أفضـل مـما توقَّـع وعاشـت أكـثر مـما خطـط!

وعندمـا اسـتقر في القاهـرة جمعتـه الصدفـة بالفنـان سـيد مـكاوي لتنشـأ بينهـما صداقـة قلَّـما تتكـرر؛ فقـد كان جاهـين يصـف علاقتـه بمـكاوي بـ«العسـل والطحينـة»؛ فكانـا يذهبـان إلى الموالـد في كل مـكان وعـلى رأسـها مولـد «السـيدة زينـب»، ويجلسـان معًـا بالسـاعات الطويلـة في شـقة جاهـين في ميـدان لاظوغـلى لتجهيـز «الليلـة الكبـيرة» وغيرهـا مـن الأعـمال التـي جمعتهـما، ولكـن أطـرف مـا في هـذه اللقـاءات أنهـما في إحـدى المـرات «كانـوا بيهـزروا وبيضحكـوا»، فألفَّـا ولحَّنـا الأغنيـة الشـهيرة: «يـا صهبجيـة.. إيـه يـا لا لـلّي».

لذلـك عندمـا سـألته مذيعـة: لـو هتعيـش في جزيـرة لوحـدك ومسـموح لـك تاخـد شـخص واحـد معـاك.. تاخـد مـين؟ قـال: سـيد مـكاوي.

«٤»

في الوقـت الـذي كان يحتفـل فيـه العلـماء باكتشـاف كوكـب جديـد في المجموعـة الشمسـية هـو كوكـب بلوتـو، كانـت صرخـات سـيدة تدعـى أمينـة تنطلـق في كل مـكان داخـل بيـت مـن أربعـة أدوار يملكـه الصحفـي أحمـد حلمـي في شـارع «جميـل باشـا» بشـبرا، تلـك الصرخـات التـي كان سـببها الـولادة المتعـثرة بشـدة -كأن المولـود يرفـض أن يخـرج إلى الدنيـا- التـي جعلـت المولـود لا يـصرخ فـور ولادتـه؛ ليظـن الجميـع أنـه قـد وُلـد ميتًـا!

لكـن في هـذه اللحظـات صرخ المولـود «محمـد صـلاح الديـن» بعـد ولادة متعـثرة، وأكـد علـماء النفـس أن تلـك اللحظـات تركـت آثارهـا عـلى شـخصيته وتسـببت لـه في عـدم اسـتقرار الحالـة المزاجيـة، فجعلتـه عندمـا يفـرح يـكاد يطـير وعندمـا يحـزن يصـل إلى درجـة الاكتئـاب، إنهـا علامـات النبـوغ التـي اتصـف بهـا صـلاح جاهـين.

ظلـت الحالـة المزاجيـة لجاهـين تتأرجـح حتـى ليلـة ١٦ مـن أبريـل عـام ١٩٨٦... ليلـة الغـارة الجويـة الأمريكيـة عـلى ليبيـا والتـي سـقط فيهـا المدنيـون، دخـل جاهـين غيبوبـة المـوت التـي كانـت كل الأحـداث المحيطـة بـه تدفعـه إليهـا؛ فتلاميـذه الذيـن صنعهـم تطاولـوا عليـه، والمسـؤولون عـن المـسرح القومـى سـحبوا مسرحيتـه «إيزيـس» في الوقـت الـذي كانـت فيـه تحقـق أعـلى إيـرادات في تاريـخ القطـاع العـام، ليضعـوا بـدلا منهـا مسرحيـة «مجنـون ليـلى» التـي لم يشـاهدها أحـد، ويومهـا عـبَّر عـن ذلـك بكاريكاتـير في الصفحـة التاسـعة بجريـدة «الأهـرام» ينتقـد فيـه المسرحيـة.

ولم تتوقف المصائب عند هذا الحد، بل إنه عندما دقَّت الفرحة أبواب قلبه بعد صدور الديوان الأول «الرقص في زحمة المرور» لابنه بهاء تم وأد هذه الفرحة في مهدها، لأنه في هذه الأثناء وقعت أحداث شغب تسببت في حرق ملاهي شارع الهرم فقام كرسام كاريكاتير بالربط بين أحداث الشغب واسم ديوان بهاء، وقال ما معناه: «بعد أحداث الشغب أين يرقص الناس، لا بد أن يرقصوا من زحمة المرور»، لكنه فوجئ بأن تم حذف اسم بهاء من الكاريكاتير على يد المسؤول عن الديسك المركزي، ويومها ردَّ جاهين على مَن انتقدوه لأنه يروِّج لديوان ابنه قائلا: «والله يا جماعة أنا لو شفت أن الديوان ده لواحد غير ابني كنت كتبت نفس التعليق واسم المؤلف»، ولكن هذه الواقعة لم تمر مرور الكرام بل تركت أثرًا نفسيًّا بداخله.

رحل جاهين وهو يحلم أن يبني مسرحًا مثل شكسبير يقدم فيه ما يريد دون قيود أو ضغوط، لكنه عاش ومات لا يملك من حطام الدنيا سوى أرصدة في القلوب وليست في البنوك.

رحل جاهين بعد أن زار الكعبة، لتبكي عليه الأرض التي أضحكها قبل البسطاء الذين عشقوه.

رحل صلاح الإنسان، وبقي جاهين المبدع الذي تتردد أغانيه في كل المناسبات من عيد الأم إلى عيد الربيع، وتتصدر رباعياته مبيعات سوق الكتب؛ لتعلم الدنيا بأسرها أنه ما زال يحيا بيننا وتظل وصيته تتناقلها الأجيال:

أوصيك يا ابني بالقمر والزهور
أوصيك بليل القاهرة المسحور
وإنْ جيت في بالك.. اشتري عُقد فُلّ
لأي سَمْرَا.. وقبري إوْعَك تزور

فـارس هذا الزمان الوحيد

«١»

في عـام ١٩٤٠ وقـف عـلي ماهـر باشـا رئيـس الـوزراء، أمـام البرلمـان، وأعلـن أن مـصر سـوف تقـوم بتقديـم المعونـة لبريطانيـا!

في هـذا العـام وُلـد الشـاعر الفـذّ أمـل دنقـل، لكـن حـين رحـل -قبـل أن يُكمـل عامـه الثالـث والأربعـين- كانـت مـصر تنتظـر حظهـا مـن المعونـة التـي تـأتي لهـا سـنويًّا مـن أمريـكا!

لكـن ظـل البعض يردد ما قاله أمل:

لا تصالِح

ولو منحوك الذهب

ولا أحـد يتصـور أن هـذه القصيـدة الأشـهر في تاريـخ أمـل دنقـل قـد كتبهـا في نوفمـبر مـن عـام ١٩٧٦، أي قبـل أن يعلـن الرئيـس السـادات عـن نيتـه الذهـاب إلى إسرائيـل، كأنـه كان يقـرأ الطالـع السـياسي للرئيـس، لذلـك لـو أن هنـاك شـاعرًا واحـدًا ملهَـمًا لـكان -بـلا جـدال أو نقـاش- أمـل دنقـل.

هـو معجزة لدرجة أنـك تعجز عن وصفه!

فلـو حصـل عـلى نصـف حقـه فقـط ربمـا لظلـت وسـائل الإعـلام تتحـدث عنـه ليـل نهـار بـلا انقطـاع، فمـروره عـلى الدنيـا دليـل أن عـصر المعجـزات لم ينتـهِ.

فـلا يحتـاج إلى لقـب أو تعريـف أو تقديـم، ولا يمكـن أن تضـع لـه منطـق الأنـاس العاديـين فهـو اسـتثناء منـذ خلقـه اللـه، ولا

يجـوز أن تضـع معايـير لتقييمـه، فهـو حالـة فريـدة يجـب دراسـتها بشـكل منفـرد.

فقـد ظـل أمـل دائمًـا يـرى مـا لا يـراه سـواه، ويحلـم بالمسـتحيل لكنـه لا يحلـم لنفسـه، فحلمـه مرتبـط بوطنـه، لذلـك حـين رحـل نعـاه الفـذّ يوسـف إدريـس قائـلا: «لـن أطلـب منكـم الوقـوف دقيقــة حــدادًا، فنحــن إذا وقفنــا حــدادًا، ســيكون الحــداد عــلى عـصر طويـل قـادم، حـدادا عـلى العـصر الـذي سيمضي حتـى يشـبّ فيـه رجـال لهـم شـيم الرجـال الذيـن كان يراهـم أمـل دنقـل، وكـرم الرجـال الذيـن كان يحلـم بهـم أمـل دنقـل، وشرف ونبـل وإنسـانية وشـجاعة ورقـة الرجـال الذيـن استشـهد أمـل دنقـل وهـو يراهـم، ويحلـم برؤيتهـم».

«٢»

«هـو فوضـوي يحكمـه المنطـق، بسـيط في تركيبـة شـديدة، صريـح وخفـيّ في آن واحـد، انفعـالي متطـرف في جـرأة ووضـوح، وكتـوم لا تـدرك مـا في داخلـه أبـدًا.

يمــلأ الأماكــن ضجيجًــا، وصخبًــا، وســخرية، وضحــكا، ومزاحًــا. صامـت إلى حـد الـشرود يفكـر مرتـين، وثلاثًـا في ردود أفعالـه وأفعـال الآخريـن، حزيـن حزنًـا لا ينتهـي.

استعراضيٌّ يتيـه بنفسـه في كبريـاء لافـت للأنظـار. بسـيط بسـاطة طبيعيــة يخجــل معهــا إذا أطريتــه وأطريــت شــعره، وربمــا يحتــد عـلى مديحـك خوفًـا مـن اكتشـاف منطقـة الخجـل فيـه.

صخـريٌّ شـديد الصلابـة، لا يخـشى شـيئًا ولا يعـرف الخـوف أبـدا، لكـن مـن السـهل إيـلام قلبـه.

صعيـدي محافـظ، عنيـد لا يتزحـزح عـما في رأسـه، وقضيتـه دائمًـا هــي الحريـة، ومشـواره الدائـم يبـدأ بالخـروج.

عاشـق للحيـاة، مقـاوم عنيـد، يحلـم بالمسـتقبل والغـد الأجمـل، ولا يحـب منطقـة الوسـط، ولا ينتمـي إلى المناطـق الرماديـة، ويمقـت الحلـول الوسـط، إنــه يتلـف كل الألــوان ليظـل الأبيـض والأسـود وحدهــما في حياتــه. هــارب دائمًــا مــن كل مناطــق الحيــاد التــي تقتلــه».

هــذا هـو أمـل دنقـل كـما عرفَتْـه ورأتْـه ووصفتْـه أرملتـه المبدعـة البديعـة عبلـة الروينـي أقـرب الأحيـاء إلى قلبـه، فأمـل حالـة خاصـة، ولـون إبداعـي فريـد، وشـخصية يصعـب وصفهـا أو تكرارهـا.

«٣»

فقـدَ أمـل كثيريــن في رحلـة حياتــه القصـيرة، في السـابعة عـرف أمــل فَقْــدَ الأخــت، وفي ســن العــاشرة عــرف فَقْــدَ الأب، وقبــل أن يبلــغ السادســة عــشرة -في عــام ١٩٥٦- تــدرب أمــل دنقــل عــلى حمــل الســلاح!

وقتهــا أعلنــت المدرســة أنهــا ســتقوم بالتعــاون مــع الجيــش بتدريـب الطـلاب عـلى السـلاح حتـى يسـتطيعوا الاشـتراك في المعركـة ضـد العـدوان الثـلاثي عـلى بورسـعيد الباسـلة.

فسـارع أمـل دنقـل بالاشـتراك في التدريـب في «حـوش المدرسـة»، وبالفعـل ظـل التدريـب قائمًـا عـدة أيـام حتـى أجـاد التعامـل مـع السـلاح، لكـن بعـد انتهـاء فـترة التدريـب تـم إبلاغـه بأنـه سـيعمل في الدفـاع المـدني، فطغـى الحـزن عليـه، وشـعر أنـه بحاجـة ماسـة إلى أن يعــبِّر عــن انفعالاتــه، وأن لديــه مــا يقولــه، فوجـد نفســه

يكتب أول قصيدة في حياته، ليكتشف أن بذرة الشِّعر تعيش داخله، وقرر في هذه اللحظة أن يحارب بالقصيدة.

في هذه الأثناء كان أمل ما زال طالبًا في المدرسة الثانوية، وفجأة هبط إلى فصله مدرِّس حضر لتوِّه من القاهرة، وقال: «أنا اسمي توفيق حنَّا، وهادرِّس لكم فرنساوي».

كان توفيق حنَّا بمثابة نقطة التحول الأهم في حياة أمل دنقل، فقد كان يحكي له عن القاهرة، وعن كبار الأدباء والمثقفين، وكان ذلك عالَمًا مجهولا لتلميذ في ثانوي.

وتفتَّح وعي أمل وحصل على الثانوية، وترك المدرسة، وذهب إلى جامعة القاهرة -بصحبة صديق عمره عبد الرحمن الأبنودي- وحينذاك كانت القاهرة حافلة بكل الأنشطة السياسية والثقافية، فنسيَا في صخب القاهرة أنهما طالبَين في الجامعة حين شغلتهما الثقافة عن الدراسة.

وعادَا إلى قنا للتفرغ للشعر والقراءة، وعمل الأبنودي في المحكمة ككاتب جلسة، في حين تسلم أمل عمله كمُحضَر في المحكمة -وكان من مهام وظيفته أن يقوم بتنفيذ أمر المحكمة بالحجز على ممتلكات الناس- لكنهما استقالا بعد أن تحملا كمًّا هائلا من السخافات طوال فترة عملهما في هذه الوظيفة ثقيلة الظل.

وعاد الاثنان إلى رشدهما ورجعا إلى القاهرة، وظلا يناضلان فيها حتى صار كلاهما بمثابة معجزة شعرية كبرى، وصار لكلٍّ منهما مدرسة لها مريدون من المحيط إلى الخليج، أحدهما صار من علامات الشِّعر العامِّي، والآخر صار يُدرَّس شعره في أقسام اللغة العربية لطلاب الجامعات.

لكن الأهم أنهما ظلا صديقين حتى الرمق الأخير في حياة

أمـل دنقـل، لكـن المدهـش أن أمـل في هـذا اللقـاء قبـل الأخـير قـال للخـال: «أنـا سـمعت لـك غنـوة كنـت عاملهـا لمحمـد قنديـل في عيـد الربيـع وماسـمعتهاش تـاني، أنـا عايـز الغنـوة دي دلوقتـي».

فتعجب الخال وسأله: «اسمها إيه؟»، فقال: «ناعسة».

الغريـب أن الأبنـودي لم يتذكـر الأغنيـة مطلقًـا، وسـأل عنهـا كل الملحنـين الذيـن تعـاون معهـم، حتـى وجدهـا لـدى حلمـي أمـين الموجـي، وكانـت تائهـة وسـط الشرائـط، وظـل يبحـث عنهـا حتـى وجدهـا.

وذهـب الأبنـودي لأمـل، ليسـمع الأغنيـة التـي طلبهـا، وكانـت تقـول:

ويا ناعسـة لا لا.. لا لا
خِلْصِـت معايا القِوَالة
والسهم اللي رماني
قاتلنـي لا محالة!!

كأن أمـل كان يقـرأ نفسـه في هـذه الغنـوة، فالسـهم قـد أصابـه، ولا محالـة.

الشِّعر ذاته

«١»

في ١٦ يونيو ٢٠١١ كانت المرة الأولى التي ألتقي فيها الخال وأجلس معه.

يومها ذهبت إليه في بيته في الضبعية في الإسماعيلية بتكليف من الأستاذ إبراهيم عيسى لأحصل منه على أحدث قصيدة كتبها لننشرها في جريدة «التحرير» في الأعداد الأولى.

القصيدة كانت «لسّه النظام ماسقطش»، عنوانها كان لافتًا، فلم يكن وقتها بعد شهور قليلة من ثورة يناير قد التفت أحد إلى أن النظام القائم هو امتداد للنظام السابق الذي ثار الشعب عليه، لذلك أمسكت بالورق الذي سطر عليه الخال قصيدته لأقرأ ما فيه لكنه أمسك الورق من يدي، وأعاده إلى المنضدة التي أمامه مقلوبًا!

كان هدفه أن لا أقرأ أمامه، ثم قال لي: «اقرأ لما تمشي، وابقى كلمني قول لي رأيك».

اندهشتُ لكني التزمتُ بما قاله الخال، فقد كنت أحمل في ذهني طوال طريقي إليه كل ما قيل عنه، من ثناء عظيم، ونقد حاد.

لكن أكثر ما جال بخاطري هو ما كتبه الأديب خيري شلبي عنه حين قال: «الأبنودي يوضَع في كفة، وجميع شعراء جيله -فصحى وعامية على السواء- في كفة... حقًّا إن كل شعراء جيله

على درجة كبيرة من الموهبة، أما هو فإنه نَفَسٌ شِعريٌّ خاص، تيار كامل، مدرسة، لا أقول إنه موهوب بل أقول إنه الشِّعر ذاته، خلقه الله أصلا ليكون شاعرًا».

قرأتُ ما كتبه خيري شلبي عشرات المرات، فكان بدهيًّا أن أذكره، وأتذكره، وأنا في طريقي إلى الإسماعيلية لمقابلة الخال، لذلك كنت أدرك قيمة وأهمية وروعة أن أكون أول من يقرأ واحدة من قصائد عبد الرحمن الأبنودي، كنت شغوفًا جدًّا لقراءة القصيدة في أسرع وقت ممكن، فانتهيت من قراءتها قبل أن أصل إلى القاهرة، وتوقفت كثيرًا عنده قوله:

الثورة كالزحلفة.. ولكنها ثورة
كإنها لعبة ولعبناها في محاورة..
كسبنا دَوْرة.. وغيرنا كسبوا ميت دَوْرة
وإن جيتوا للجد.. قَدَم الثورة مشلولة
الثورة.. لازِمْها ثورة أقوى من الأولى

المدهش أن الخال كان مهتمًّا أن يسمع رأيي في الملحمة البديعة، وكنت مندهشًا من سعادته برأيي، فهل كان يحتاج إلى رأي شاب لم يكن قد تجاوز الثلاثين من عمره في واحدة من أبدع قصائده؟ هل يصل إلى هذه الدرجة من التواضع؟ هل مَن كان يسمع رأي صلاح جاهين وفؤاد حداد وأمل دنقل ونزار قباني ومحمود درويش يمكن أن يسمع رأي أحد بعد رحيلهم؟!

الأسئلة لم تنتهِ، لكنها بدأت.

«٢»

وتعـددت اللقـاءات بينـي وبـين الخـال، وصـار بيننـا تواصـل دائـم، واتصـال شـبه يومـي، وتأكـدت بعـد أن توثقـتْ علاقتـي بـه أنـه شـديد الخجـل حـين يسـمع مَـن يُثنـي عليـه، وأنـه حـين ينتهـي مـن كتابـة قصيـدة جديـدة ينتظـر آراء العـوام فيهـا قبـل آراء المتخصصـين، ويُنصـت حـين يسـمع هـذه الآراء بصـورة تدعـو إلى الحـيرة والدهشـة.

لكنه الإخلاص وحده.

فهـو حـين يكتـب جديـدًا لا يعتمـد عـلى رصيـده الضخـم في قلـوب محبيـه، بـل إنـه يريـد أن يعيـد اكتشـاف نفسـه وموهبتـه الفـذة مـع كل كلمـة يكتبهـا، وهـذه هـي القيمـة الحقيقيـة لعبـد الرحمـن الأبنـودي ذلـك المَعـين الـذي لا ينضـب، رغـم أن أمثالـه مـن نجـوم الشِّـعر يكتفـون بمـا قدمـوه، وهـو بالفعـل يكفيهـم.

لكـن هـذا هـو عبـد الرحمـن الأبنـودي الـذي أَحبَّـه الشـعب المـصري لبسـاطته، قبـل شِـعره، لكنـي عرفـت الخـال عـن قـرب تمـام المعرفـة عـبر «المربعـات» التـي تعـد أكـبر ملحمـة شـعرية لـو نظرنـا إليهـا نظـرة فاحصـة وموسـوعية.

فقـد أرّخـت لعـام كامـل في تاريـخ مـصر، ولم نعهـد مثـل هـذا التأريـخ بطـول التاريـخ وعرضـه، ولم نعـرف تأريخًـا مشـابهًا سـوى تاريـخ الجـبرتي الـذي كتبـه نـثرًا، بينـما كتبـه الخـال شِـعرًا لتوثيـق كل مـا جـرى في مـصر يومًـا بعـد يـوم ولمـدة عـام كامـل، لم يكـن يتصـور الأبنـودي في بدايتـه أنـه يمكـن أن يسـتمر أكـثر مـن ثلاثـة أشـهر -مـن تجربـة اسـتثنائية لا يمكـن تكرارهـا- في كتابـة شـعر

يوميًّـا.

لكـن للمربعـات قصـة وتفاصيـل شـاء القـدر أن أكـون شـاهدًا عليهـا.

البدايـة كانـت عندمـا اتصلـتُ بالخـال، أطمـئن عليـه، وأسـأله عـن صحتـه وأحوالـه، ففاجـأني وقـال لي: «أنـا لقيـت نفـسي باكتـب حاجـة كـده عايـزك تسـمعها»، وقـال:

إحنـا ماطردناش مبارك

ولا حطّيناه في سجن

بُـصّ في الجورنال.. مبارك

نَفسـه.. بس طلع له دقن!!

وصفَّقـتُ للخـال واسـتأذنتُه في نشرهـا في جريـدة «التحريـر»، فوافـق متكرمًـا، واتصلـت بالأسـتاذ إبراهيـم عيـسى الـذي طـار فرحًـا بهـذه الرباعيـة -التـي لم يكـن الخـال قـد أطلـق عليهـا اسـم مربـع- واحتفـى بهـا -كعادتـه في الاحتفـاء بالمبدعـين- في الصفحـة الأولى مـن جريـدة «التحريـر».

وبـدأ الأسـتاذ إبراهيـم يتواصـل مـع الخـال ليكتـب في «التحريـر، واتفقـا عـلى أن يحصـل الخـال عـلى فرصـة لمـدة أسـبوع للتفكـير، للـرد إذا كان يسـتطيع الكتابـة أم لا، لكـن بعـد ثلاثـة أيـام فقـط كان رد الخـال جاهـزًا وحاسـمًا وقـال: «أنـا جاهـز.. أنـا هاكتـب مربعـات.. كل يـوم مربـع».

كان الخـال خـلال يومـين فقـط قـد كتـب عـددًا هائـلا مـن المربعـات، فتذكـرتُ مـا قالـه عنـه خـيري شـلبي «إنـه لا يعـاني مـن الكتابـة ولا يبـذل جهـودًا مضنيـة في الإبـداع إنمـا هـو يمتـاح مـن بـئر ليسـت تنفـد».

«٣»

وبـدأت رحلـة «المربعـات» اليوميـة، وقـرر الخـال أن يلاحـق الأحـداث بشِـعره، فعندمـا كـثرت خطابـات الرئيـس محمـد مـرسي، وقلّـت أفعالـه كتـب يقـول:

وعَازْلينّـي عن الدنيا
بقيـت ماعرفش شيء عنكم
كأني رئيـس بلد تانية!!
بقيـت باخْطُب بدل ما احْكُم

استمرت المربعـات، وصـار اتصـالي بالخـال كل يـوم، مـرة ومرتـين، وأحيانـًا ثلاثـًا ولم أجـد في حيـاتي أَحْـرَص مـن الخـال عـلى مـا يكتبـه، فهـو يُراجـع ويُدقّـق ويُفنّـد ويُفكـر ويـدرس ولا يـكلّ ولا يمـلّ مـن مراجعـة كل شيء بدقـة بالغـة.

ففـي كل يـوم يصـل «المربـع» عـلى الفاكـس ثـم نقـوم بكتابتـه عـلى الكمبيوتـر، ومراجعتـه ثـم إرسـاله إليـه ليتأكـد مـن كل كلمـة وحـرف وتشـكيل موضـوع فـوق الحـروف، ثـم بعـد ذلـك يعيـد إرسـال المربـع مـرة أخـرى بتعديلاتـه، وربمـا تتغـير الأحـداث في دقائـق، فيرسـل مربعـا آخـر، فيمـرّ بنفـس دائـرة العمـل.

وكان الخـال يرسـل المربعـات بأكـثر مـن طريقـة، فهـو يرسـل سـبعة مربعـات كل يـوم جمعـة، ليتـم نشرهـا عـلى مـدار الأسـبوع، لكنـه كان يقـوم بإرسـال مربعـات أخـرى طـوال أيـام الأسـبوع خصوصـا أن الأحـداث كانـت متلاحقـة، وقـد أراد أن يؤرخهـا شـعرًا. ولعـل أكـثر المربعـات انتشـارًا عـلى صفحـات التواصـل الاجتماعـي هـو مـا قالـه بعـد ثـورة ٣٠ يونيـو التـي وقـف فيهـا العـالم أمـام

إرادة الشعب المصري، وحاولت دول كثيرة أن تعيد الإخوان إلى الصورة وإلى الكرسي لكن جاء الرد من الخال قاطعًا بقوله:

لا أمريكاني.. وَلاَ ألماني..
ولا إيراني.. وَلاَ أردوغاني..
ولا قَطَر ولا مِيتْ آل ثاني..
حَيْرجَّعُوا (العَرْش) الإخواني!!